أثر القرآن الكريم في شعر بوشكين

بقلم: حواس محمود
سورية

يعد كتاب «بوشكين والقرآن» حدثا ثقافيا متميزا، وإضافة مهمة إلى رصيد الاهتمامات الغربية بالثقافة والتراث الإسلامي والعربي، ويقول مؤلف هذا الكتاب الأستاذ مالك صقور: قلة هم الذين يعرفون بوشكين في وطننا والأقل يعرف أن الشاعر الروسي الكبير هذا قد كتب قصيدة بعنوان «اقتباس القرآن».

اهتم بوشكين بالقرآن وأعجب به بل شغف به شغفا عظيما، ومن فرط إعجابه تأثر بآياته وبسيرة شخصية النبي العربي محمد ﷺ، فكتب قصيدة من تسعة مقاطع مختلفة هي بحد ذاتها قصيدة «اقتباس القرآن» موضوع الكتاب.

الهدف من الكتاب:

يرى المؤلف أن الهدف من هذا الكتاب هو تسليط الضوء على تأثير الثقافة العربية الإسلامية في الثقافة الروسية بشكل عام، وتأثير القرآن الكريم على بوشكين بشكل خاص، وتأثر بوشكين بشخصية النبي العربي ﷺ من خلال إبداعاته التي استلهم موضوعاتها وأفكارها من الثقافة العربية، ومن القرآن الكريم، ومن السيرة النبوية[1].

روسيا والعرب:

تعود علاقة روسيا بالعرب إلى عصور الفتوحات الإسلامية وعصر الخلافة العربية التي يسرت وصول التجار العرب المسلمين إلى الشمال الروسي (يؤكد على ذلك المؤرخ وول ديورانت صاحب العمل الضخم قصة الحضارة)، ويؤكد المستعرب الكبير إغناطيوس كراتشكوفسكي أن اسم العرب قد ورد في مخطوط قديم ،يعود إلى القرن الحادي

عشر الميلادي هو «حكايا السنين الغابرة»، ويقول: إنه نتيجة وصول التجار العرب المسلمين إلى المدن الروسية، ونتيجة الاحتكاك مع الشعوب المجاورة التي تعتنق الإسلام، وكذلك ذهاب الحجاج الروس المسيحيين إلى فلسطين دخلت اللغة الروسية الكثير من الكلمات العربية التي ما زال بعضها يستخدم حتى الآن، هذا وتجدر الإشارة إلى أنه من الذين لعبوا دورا هاما في نقل الثقافة العربية إلى روسيا كان الشيخ محمد عياد الطنطاوي - الأستاذ بجامعة سانت بطرسبورغ والمستشار «برتبة عقيد»، ففي عام ١٩١٩م تم الاحتفال بالذكرى المئوية لجامعة سانت بطرسبورغ، وقد بدئ بالاستعداد لهذا الاحتفال قبل الثورة، ويمكننا الاستنتاج - في نهاية هذه الفقرة - أنه منذ مطلع القرن التاسع عشر بدا تأثير الأدب العربي في روسيا واضحا جدا، فقد كتب سينوفسكي «قصص شرقية» وترجمها إلى الروسية بولديرف، وقد أعجب بوشكين بها، وخاصة قصة «فارس الحصان الأشقر»[٢].

الموضوعات العربية في إبداع بوشكين:

يرى المؤلف أنه من الطبيعي جدا لشاعر مرهف أن يعكس الجمال والغرابة، وسحر الطبيعة التي رآها، وعاش بين أحضانها ويتأثر بالأعراف والعادات والتقاليد للشعوب الإسلامية التي عاش بينها فترة نفيه في الجنوب، لكن سرعان ما انعكست حياة الشعوب الإسلامية وتأثرها بالثقافة العربية على أشعار بوشكين وقد تجلى ذلك في قصائد كثيرة نذكر منها : «إلى نتاليا» ، و«إلى أختي » و «أيتها الفتاة» و«الوردة» و « مكبل أنا بالأصفاد ».

ويعتمد بوشكين على «ألف ليلة وليلة» في ملحمته الشعرية الأسطورية «روسلان ولودميلا» والتي كانت سبب شهرته الواسعة وهو في مقتبل العمر، إذ يأخذ بوشكين الفكرة الرئيسة التي بنى ملحمته عليها من حكايات ألف ليلة وليلة، والفكرة هي خطف العروس في ليلة زفافها من بين المحتفلين بالعرس..

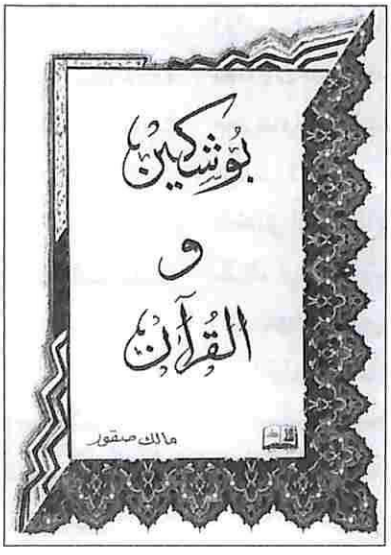

لقد تأثر بوشكين بسيرة الرسول ﷺ فكتب قصيدة بعنوان: «المغارة» يقول فيها:

«وفي المغارة السرية
في يوم الهروب
قرأت آيات القرآن الشاعرية
فجأة هدأت روعي الملائكة
وحملت لي التعاويذ والأدعية»

هذه الأبيات تؤكد أن بوشكين اطلع على سيرة الرسول ﷺ ويعرف تفاصيل الهجرة، وقصة لجوء الرسول ﷺ وصديقه أبي بكر الصديق إلى غار ثور، وملاحقة المشركين لهما، ونزول الآية (٤٠) من سورة التوبة[٣].

اقتباس القرآن الكريم:

تتألف قصيدة «اقتباس القرآن» من تسع مقطوعات مختلفة الطول والبحر وتتناسب مع الآيات القرآنية التي اقتبس منها بوشكين وأسس عليها أشعاره، وقد وضع أرقاما باللاتينية لهذه المقطوعات من واحد إلى تسعة.

ويسمي المؤلف مقطوعة أو منظومة بدلا من القول «قصيدة» لأن العنوان العام هو «الاقتباس».

الاقتباس الأول:

يستهل الشاعر قصيدته بالقسم مقتبسا شكل القسم الوارد في القرآن الكريم مستخدما كلمة «أقسم» بدلا من (واو) القسم، لأن اللغة الروسية لا يوجد فيها حروف القسم، وتأكيدا على جواب القسم يتابع الشاعر في الرباعية الثالثة من الاقتباس قائلا:

«ألست أنا الذي سقيتك
يوم العطش بماء الصحراء؟..
أما وهبتك لسانا فصيحا
وعقلا راجحا فوق كل العقول؟»

أما في الرباعية الأخيرة عند بوشكين فيأمره: كن رجلا شجاعا، ولا يكتفي بهذا، بل احتقر الغش والخداع، واجعل الحقيقة هدفك، اتبعها وبشر بها....

والرباعية الأخيرة هي صوت الشاعر، إذ جعل هذا النداء بروح

القرآن، مخاطبا رجال الثورة في أيامه ليشحذ الهمم ويحرض على الانتفاضة.

الاقتباس الثاني:

يقتبس الشاعر أبيات المقطوعة الثانية من سورة الأحزاب، الآيات: ٣٢، ٣٣، ٥٣ متنقلا إلى موضوع آخر، وهو موضوع العظة والحشمة والخطيئة متخذا من هذه الآيات مثالا يقتدى به، من حيث تعلم الآداب العامة، وحسن السلوك، سواء في موعظة النساء، أو في آداب الضيافة وحسن التصرف في حضرة الرسول الكريم ﷺ، الذي يكره الثرثارين، والكلام الفارغ، وضياع الوقت في التوافه، فيما يستحيي الرسول ﷺ أن يطلب إلى الضيوف التخفيف من الزيارة، أو عدم الإطالة بالأحاديث عديمة الجدوى (ولكن الله لا يستحيي من الحق) ويمكن إيجاز مدلول هذا الاقتباس بأن بوشكين قد حاول أن يدخل إلى الحياة الاجتماعية من خلال تلك الآيات.

الاقتباس الثالث:

يتناول الشاعر في هذا الاقتباس موضوعين رئيسين وهما:

- موضوع التكبر والغرور، يقول:

«لماذا يتكبر الإنسان
لأنه جاء عاريا إلى هذه الدنيا
أم لأنه يعيش عمرا قصيرا
أو لأنه يموت ضعيفا كما ولد ضعيفا».

- يتناول في الرباعيتين الأخيرتين من هذا الاقتباس وصف يوم القيامة، وقد استلهم أفكاره من الآيات ١٨ و ٤٠ من سورة النبأ، والآيات ٣٣ إلى ٤٢ من سورة عبس مستخدما الصورة ذاتها، وحتى الكلمات دون تعديل تقريبا:

«فيهرب الأخ من أخيه
ويفر الابن من أمه»

وفي القرآن: ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه ❖ وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه**﴾ (سورة عبس الآيات ٣٣-٣٥).

الاقتباس الرابع:

يستلهم بوشكين هذا الاقتباس المؤلف من مقطع واحد وأربعة عشر بيتا من الآية الكريمة ٢٥٨ من سورة البقرة، ويختلف الاقتباس الرابع عن غيره - برأي المؤلف - لأن

بوشكين

بوشكين اكتفى بمضمون النص القرآني عدا الأبيات الثلاثة التي يستهل بها هذا الاقتباس الذي يدين التكبر والغطرسة، وجنون العظمة، التي كان يكرهها بوشكين، وربما اكتفى بمضمون الآية الواضح وعقاب الله لهؤلاء وإذلاله لهم.

الاقتباس الخامس:

يتابع بوشكين في الاقتباس الخامس استلهامه لآيات القرآن التي تشير إلى قدرة الله تعالى مثل الآية العاشرة من سورة لقمان: ﴿ **خلق السموات بغير عمد**﴾ وبوشكين يقول: هامدة هي الأرض، أو ساكنة في حركتها الظاهرية، مستمدا ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا وسبلا لعلهم يهتدون ❖ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن ءاياتها معرضون**﴾ الأنبياء ٣١-٣٢. ثم ينتقل إلى آية النور بالمعنى الديني المباشر، وبالمعنى المجازي، ثم ينتقل إلى قدرة الله الخالق القادر الذي ينعم على الأرض بالماء والفيء وينتهي في الرباعية الأخيرة:

«هو الرحيم
أنزل القرآن المقدس على محمد
وبتنزيله نقلنا إلى النور
وانقشعت الغشاوة عن العيون»

الاقتباس السادس:

يؤسس بوشكين الاقتباس السادس على آيات من سورة الفتح وعلى آية من سورة آل عمران، مستلهما آيات الجهاد، من أجل نضاله ونضال رفاقه الذين كانوا يستعدون لانتفاضة شهر كانون الأول التي أطلق عليها «الديسمبريين».

الاقتباس السابع:

يختلف الاقتباس السابع عن غيره، إذ لا يستخدم الشاعر التربيع، ويكتفي بمقطع واحد من اثني عشر بيتا وشطرا وتأتي بعد، النصر، والفتح، فيقدم الشاعر صورة الرسول المنتصر، مفرقا بين ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق**﴾ أي مبشرا بالنصر، وبدخول المسجد الحرام، وبين الرؤيا المخادعة والمخاتلة، والأفكار الحزينة، وتأتي مرحلة الاستقرار النفسي، وعلى الرسول المجاهد والمحارب والمنتصر أن يقوم للصلاة،ويتفرغ لقراءة القرآن الذي يطلق عليه الشاعر (الكتاب السماوي)، وتارة أخرى يطلق عليه: القرآن.

الاقتباس الثامن:

يؤسس بوشكين هذا الاقتباس على الآيات التي تركز على العطاء وعلى الصدقات والزكاة وعلى فعل الخير، كما يركز على يوم الحساب الرهيب، يوم يتساوى الجميع أمام الحق وعلى الصراط، ولا يشفع عند الله إلا عمل الخير،من هنا جاء شعر بوشكين وقد فهم يوم الحساب، يوم القيامة حيث يقول:

«وفي يوم الحساب الرهيب يتساوى الحقل والغيم
إيه يا ناثر الخير
نتائج أعمالك ستعود إليك».

الاقتباس التاسع:

هذاالاقتباس الأخير جاء في ستة مقاطع، كل مقطع من ستة أبيات، على خلاف سابقاتها،وقد أخذ الفكرة من سورتي البقرة والكهف... وفي هذا الاقتباس حاول بوشكين أن يصور عابر السبيل في الصحراء تصويرا واقعيا حيث يلقى كل عابر سبيل في الصحراء المصيرذاته، فالغيظ شديد، والعطش، وفقدان الماء، وكثافة الغبار[٤].

دوافع اهتمام بوشكين بالقرآن الكريم:

يعيد المؤلف اهتمام بوشكين بالقرآن الكريم إلى أربعة أسباب هي:

السبب الأول يعود إلى اهتمام أوروبا بشكل عام، واهتمام روسيا بشكل خاص بالمشرق العربي وثقافته، بوشكين بالذات كان على دراية تامة باهتمام أوروبا ومنها روسيا بالثقافة الشرقية والإسلامية والعربية.

السبب الثاني: يعود إلى دوافع ذاتية تتعلق بأصول بوشكين الشرقية - الإفريقية - الإسلامية وجذوره، ونسبه، إذ ينحدر بوشكين من جهة أمه من أصول إفريقية - إسلامية، فجد أمه هوالزنجي إبراهيم هانيبال الذي خلده بوشكين بأشعاره، وكتب عنه رواية قصيرة بعنوان «عبدبطرس العظيم».

السبب الثالث: يتعلق بموهبته وقدراته العقلية التي كانت بلا حدود من حيث استيعاب ثقافات أخرى تغني الثقافة الروسية، وتفاعلها في ذهنه ليغني من ثم الشعر القومي الروسي بخلاصة هذه الثقافات والحضارات الأخرى التي اطلع عليها ومنها الثقافة العربية الإسلامية الغنية التي كانت أوروبا ومنها روسيا، تفتقر إليها، بنماذجها الخيرة، وصورها الإبداعية الرائعة.

السبب الرابع: وهذا السبب يتعلق بالزمان والمكان، ويعني ذلك المناخ السياسي، والوضع الاجتماعي، والحالة النفسية للشاعر[٥].

وختاما:

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا من الكتب القيمة والنادرة، لا ، بل هذا هو الكتاب الأول في هذا المجال والمهم جدا في دراسة وتحليل تأثر الشاعرالروسي بوشكين بالإسلام وتراثه وبالعرب والشرق عموما، لذلك أقترح أن يتم اقتناء هذا الكتاب من قبل الأفراد والمؤسسات والحكومات في بلدان العالم العربي لما فيه من فائدة في مجال الأدب المقارن، وكذلك في مجال تلاقح الثقافات والحضارات وتحاورها وتواصلها وتمازجها. ■

الهوامش:

(١) بوشكين والقرآن، مالك صقور، ص١٥، دار الحارث، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.
(٢) نفسه ، ص٤٢ .
(٣) نفسه ، ص٨٣ .
(٤) نفسه ، ص١٣١ .
(٥) نفسه ، ص١٤٢ .